المحاضرة رقم 7:

المدرسة العربية في الأدب المقارن

بدأ اهتمام العرب بالأدب المقارن مع نهاية القرن التاسع عشر وسنوات القرن العشرين الأولى، حيث اتجه الدراسون العرب إلى الموازنات بين الأدب العربي والآداب الأجنبية، لكنه اهتمام لم يكن مدعما بالعدة المنهجية واللغوية الكافية لقيام مقارنات، وهذه كانت بواكير المقارنات، في حين أن علاقات الأدب العربي وموازنته بآداب أجنبية عنده بدأت منذ زمن طويل.

1-فكرة المقارنة في التراث العربي:

كان العرب في جاهليتهم يعيشون في قبائل متفرقة، لا يربطها سوى التصعب القبلي:« **كانت القبائل بمثابة أمم جديدة، لكل واحدة عرقها الذي ترتبط به، ولهجتها التي تشترك مع غيرها في مسائل وتختلف عنها في أخرى**»[1]، وكل قبيلة شاعرها الناطق الرسمي باسمها والمدافع عنها في أيام الحرب والسلم، لهذا كثيرا ما كانت تنشأ مقابلات بين شعراء القبائل في الأسواق الشعرية، فكان أن أنتجت هذه المقابلات :أفضل شاعر، وأفضل بيت مدح وأفضل بيت غزل.

أما بخصوص المقارنة مع الأمم الأخرى فقد كان للعرب علاقات بما جاورهم من أقوام من فرس وروم وسريان، لكن الأمر لم يتطور إلى مقارنات، حتى بعد مجيء الإسلام الذي آخى بين العربي وغير العربي ووحد المبادئ، فقد:« **كونت مع العرب عالما كبيرا منعزلا عن غيره من العوالم من جهة، ولكنه يعج في الداخل بعلاقات مختلفة، الأمر الذي جعل انفتاح الأدب العربي على الثقافات الأجنبية يزداد ويقوى منذ بني أمية الذين استعانوا بالفرس لتأسيسي الإدارة**»[2]، فقد كان للإسلام دور قوي في زيادة اطلاع العرب على ثقافات غيرهم خاصة خلال الفتوح الإسلامية، وبدأت آثار هذا الانفتاح تظهر على الأدب بداية من عهد بني أمية وحتى العصر العباسي، وبخاصة الأدب الفارسي واليوناني والهندي، لكن هذا الانفتاح لم يؤدي بالفكر العربي إلى إنتاج مقارنات مع غيرهم، بل إنهم رفضوا مقارنة أنفسهم بالغير، إلا مع العصر العباسي الذي شهد إنتاجا نقديا غزيرا، خاصة ما يسمى بالموازنات في النقد العربي القديم.

1-2- الموازنة في النقد العربي القديم:

من مظاهر تطور النقد العربي في العصر العباسي كانت الموازنات بين الشعراء، منها "**الوساطة بين المتنبي وخصومه**" للقاضي الجرجاني، و"**الموازنة بين أبي تمام والبحتري**" للآمدي، وهي موازنات ارتبطت بما سمى بالسرقات الشعرية، وما تبعه من مصطلحات أهمها: التقليد والاحتذاء والاقتداء وغيرها كما هي عند الآمدي:« **إلا انه لم يتعد شأن غيره من النقاد العرب السابقين أو المعاصرين له المجال الأدبي العربي أولا، ولم يتخلص هو الآخر، نهائيا من روح المحاجة التي سادت موضوع السرقات**»[3]، وهو موضوع شائع في التراث النقدي العربي لكن دون أن يتعدى

1-حنون(عبد المجيد):العرب والأدب المقارن،دار ميم للنشر الجزائر، ط1، 2018، ص 12.
2-المرجع نفسه، ص 12.
3- المرجع السابق، ص17.

حدود الثقافة العربية وكأنهم لم يجاوروا أجنبيا، لهذا لم تكن المقارنة العربية مع الآخر غير العربي واردة في مصنفات النقد، أما هذه الموازنات فكانت:« **ذات طابع جمالي بحث ولم تتطرق إلى ظاهرة التأثير والتأثر، ولعل أبرز ما أدت إليه هو الحديث عن الأصالة**»[1]، فلم تحمل في كنهها معنى المقارنة العلمي، حتى أحكامها تبقى انطباعية خالية من الحجة، بالتالي فالموازنات في النقد العربي القديم بعيد عن معنى الأدب المقارن، وانحصرت في نطاق الأدب الواحد، فلم يتطرقوا إلى شعراء من آداب أخرى، فهي بعد هذا بعيدة عن المعنى المنهجي للأدب المقارن.

2- **بدايات الأدب المقارن عند العرب:**

2-1- الترجمة والمقابلات:

كان لانفتاح العرب على الغرب في بداية النهضة العربية؛ دور كبير في فتح عيون العربي على الأدب الآخر ومحاولة الإفادة منه، فقد كان المنفذ الوحيد للحداثة هو أوروبا، التي كانت تعيش على مبعدة بمئات السنين عن الأدب العربي وقد رزح طويلا تحت الانحطاط:« **ركزوا على دراسة التشابه والاختلاف بين الأدب العربي والآداب الغربية الحديثة، ولم يتطرقوا إلى دراسة التأثير والتأثر، لأن فضل أدب أمة على أدب أمة أخرى لم يكن من اهتماماتهم** »[2]، وهذا من أجل الإفادة من الآداب الغربية والنهوض بالأدب العربي، وكانت ترجمة الأدب الأجنبي واحدة من وسائل الاطلاع على الآداب الغربية، برز في هذا المجال: رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وأديب إسحاق وأحمد فارس الشدياق ويعقوب صروف.

أما رفاعة الطهطاوي فقد كانت له فرصة التعرف على الثقافة واللغة الفرنسية من خلال بعثة طلابية كان من ضمن طلبتها(1826) واشتغل مترجما عند عودته إلى مصر، فترجم عديد الروائع "مواقع الأفلاك في حوادث تليماك" للأب فنيلون، ومن شد إعجابه وانبهاره بالثقافة الفرنسية، فنادى بضرورة الانفتاح والاقتداء بالغرب، وأسهم في انتشار الكثير من الأفكار الغربية عند العرب، وفي كتابه: "**تخليص الأبريز في تلخيص أخبار باريز**"قدم:« **مقارنة سطحية بين الثقافتين العربية والافرنجية، وذلك في بداية الثلث الثاني من القرن التاسع عشر** »[3]، فقد تأثر الطهطاوي بثقافة الغرب وحاول نشر مفاهيمها في اللغة والأدب العربي، فأدرج موازنات في موضوعات وقضايا ميزت الأدب العربي أو الفرنسي، وكانت الموازنات ميزة في كتاباته، إضافة إلى تأكيده على ضرورة الاطلاع على الآداب وقراءتها في لغاتها الأصلية.

ومن بين رواد النهضة العربية المهتمين بالترجمة من الأدب الغربي كان"سليمان البستاني"، الذي كان أول عربي يترجم إلياذة هوميروس، وقضى في ذلك عشرين سنة كاملة:« **قارن في مقدمته لترجمة الإلياذة بين الشعرين العربي والإفرنجي، وتوصل إلى نتائج نقدية ......م كان له أن يتوصل إليها لولا ممارسته المقارنة الأدبية**»[4]، حيث تحدث عن ميزات الشعر العربي والآخر الإغريقي، فالأول غنائي والثاني ملحمي، ومدى الفروق بين الشعرين وأوزانهما مقارنا بين هوميروس وابن الرومي، وكان يقابل اللغة العربية باليونانية، منتصرا للغة العربية وشعرها ومعللا خلود اللغة العربية وثراء ألفاظها.

1-عباسة(محمد): المدرسة العربية في الأدب المقارن، مجلة حوليات التراث، العدد 7، 2017، ص 9.
2- المرجع نفسه، ص 10.
3- المرجع السابق، ص 10
4-حنون(عبد المجيد):العرب والأدب المقارن، ص 38.

ثم نجيب الحداد: وقدم مقارنة بين الشعر العربي والشعر الفرنسي ظهرت عام 1897، بعنوان:"**مقابلة بين الشعر العربي والشعر الافرنجي**" ونشرت في مجلة "البيان"، تحدث فيها عن الفروق بين الشعرين العربي والغربي:«**وكان الغرض من وراء بحثه تعريف القارئ العربي بالثقافة الفرنسية التي بلغت درجة كبيرة من التقدم**»[1]، متوصلا إلى مجموعة فروق تميز كل شعر عن الآخر منها أن الشعر العربي يتفوق في وصف الشيء في حين يتفوق الشعر الغربي في وصف الحالة.

دون أن ننسى ما جاء في مجلة **المقتطف** من دراسات مشابهة كمقال"**الانتقاد**" ليعقوب صروف، وقارن فيه بين النقد العربي والنقد الغربي، وما قدمه أحمد كامل وخليل ثابت ونيكولا فياض في المجلة ذاتها عن "بلاغة العرب والإفرنج"، وهي جهود مهدت لاستقبال الأدب الأجنبي ومقارنته بالأدب العربي وكسر العزلة التي كان يعيشها هذا الأخير، لكنها جميعا لا تستند إلى منهج علمي بل كانت تعتمد على النقد الانطباعي والذوق الخاص.

2-2-دراسة التأثير والتأثر عند العرب:

مع بدايات القرن العشرين زاد اهتمام العرب بهذا المجال المعرفي وهو"التأثير والتأثر بين الآداب" وابرز من تناولها كان"روحي الخالدي" الذي يعتبر رائدا أولا للأدب المقارن في تلك المرحلة، فهو أول من تناول العلاقات الأدبية بين الأدب العربي والأدب الفرنسي في كتابه"**تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوغو**" عام 1904، حيث تناول في كتابه التشابه بين الشعر الافرنجي والشعر العربي:« **أقرب دراسات تلك المرحلة لروح الأدب المقارن وإجراءاته المنهجية**»[2]، فقد بحث في العلاقات التاريخية عن تأثر الأدب الفرنسي بالأدب العربي خلال الفتوح الاسلامية والعصور الوسطى وفي الأندلس، وكان أول عربي يقارن بين أدبين مفسرا التأثير والتأثر.

أما قسطاكي الحمصي فقد كان مطلعا على مؤلفات سانت بيف وتين وبلدنسبرجر وبرونتيير، وهم رواد في المدرسة المقارنة الفرنسية:« **حاول من خلالها تعريف الأدباء العرب بالاتجاهات النقدية لدى الغرب، وفي كتابه منهل الوارد في علم الانتقاد تناول في الجزء الثالث منه تأثر دانتي أليغيري برسالة الغفران للمعري**»[3]، ظهر الكتاب عام 1907 وكان يعقد فيه مقارنات بين الأدب العربي والآخر الغربي، لكن دون أي إضافة منهجية أو تفسير قوي، وما يمدح في كتابه هو تنبنه:«**اقتباس دانتي الشاعر المشهور ألعوبته الإلهية عن رسالة الغفران**»[4]، بالإضافة إلى مراجع عربية أخرى كرسالة" الزوابع والتوابع" لابن شهيد الأندلسي وكتاب المعارج وغيرها.

وكان هذين أول عربيين درسا ظاهر التأثير والتأثر بين الأدب العربي وغيره، لكنها تبقى محاولات أولى ولها سقطاتها، رغم قيمتها في تطور الأدب المقارن عند العرب. وجميعها كان دراسات تطبيقية لم تظهر في هذه الفترة دراسات عربية تنظيرية حول الأدب المقارن، لأن العرب لم يعرفوا بعد هذا المصطلح.

3-مصطلح الأدب المقارن عند العرب:

عام 1908 أرسلت مصر بعثات علمية إلى فرنسا، لكي يتكونوا في مجال الأدب حتى يتولوا التدريس فيما بعد في الجامعة الأهلية، أما عام 1924 فقد تقرر تدريس مادة"اللغة العبرية واللغة السريانية ومقارنتهما باللغة العربية" .

1- عباسة(محمد): المدرسة العربية في الأدب المقارن، ص11.
2- حنون(عبد المجيد):العرب والأدب المقارن، ص 38.
3- عباسة(محمد): المدرسة العربية في الأدب المقارن، ص13.
4- المرجع نفسه، ص 13.

وظهر المصطلح أول مرة سنة 1936 مع خليل هنداوي وفخري أبو السعود، فيما نشراه من مقالات مجلة الرسالة، فقد قارن أبو السعود: «**مظاهر التشابه والاختلاف بين الأدبين العربي والانكليزي في قضايا القصة والخر افة وغيرها**»[1]، وعالج موضوعات متنوعة كالخيال وموضوع المرأة والأثر الأجنبي بين الأدبين، لكنه لم يتعرض للعلاقات التاريخية، ولهذا لقصور فهمه للأدب المقارن، أما خليل هنداوي فكانت مقالاته حول"تلخيص أبي الوليد بن رشد لكتاب أرسطو فن الشعر، وقد ذكر في دراسته مصطلح الأدب المقارن بالفرنسية(Littérature comparée) ومعربا، بذلك فقد شكل هنداوي نواة البحث المقارن العربي.

وكان لنجيب العقيقي أن أصدر أول كتاب بعنوان"الأدب المقارن" عام 1948:« **عبارة عن دراسات في الأدب والنقد ولا علاقة له بالأدب المقارن**»[2]

وفي الفترة ذاتها تقرر التدريس الرسمي لمادة الأدب المقارن بمدرسة دار العلوم 1924، إلى أن تم «**إنشاء قسم الأدب المقارن والنقد والبلاغة"، و انتدب للإشراف عليه إبراهيم سلامة وعبد الرزاق حميدة فتعاونا على تدريس مادة الأدب المقارن**»[3]، أما عبد الرزاق حميدة الذي كان يلقي محاضراته في دار العلوم فقد كان صاحب أول كتاب عربي في "الأدب المقارن" بالمعنى المنهجي عام 1948. قدم ابراهيم سلامة دروسه في كتاب بعنوان"**تيارات أدبية بين الشرق والغرب**"، وله فضل إدخال مادة الأدب المقارن في قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة عام 1953، وهو من أشرف على تدريسها. أما بخصوصهما فلهما دور كبير في ترسيخ هذا المجال في الجامعة العربية فقد كان على عاتقهما مهمة تدريسه.

4- الأدب المقارن كتخصص بحثي وعلمي:

ما مر من مراحل تطور الدراسات المقارنة عند العرب لم يعرف متخصصين فيه، بل كانت اجتهادات لأساتذة في الأدب، لهذا لم يكن لأصحابها صلة بالمنهج المقارن، ولم تعرف الجامعة العربية متخصصين في هذا المجال إلا مع خمسينيات القرن العشرين عندما عاد طلبة البعثات الطلابية إلى مصر من فرنسا، وقد تخصصوا فيه من أهمهم كان: محمد غنيمي هلال وحسن النوتي وأنور لوقا وعطية عامر، وجميعهم تتلمذ على يد جون ماري كاريه، لهذا كانت دراساتهم مستلهمة من منهج المدرسة الفرنسية التاريخية.

وأصدر غنيمي هلال كتابه"الأدب المقارن" عام 1953، عرف من خلاله بالمنهج الفرنسي في المقارنة، ومجالات المقارنة وشروطها، «**وفي السنة نفسها نشر محمد البحيري كتابا بعنوان الأدب المقارن"، لكنه لم يختلف في منهجه عن كتاب محمد غنيمي هلال**»[4]، فقد ظل كتابه مرجعا في الأدب المقارن المنهجي إلى يومنا هذا، وبقي الاتجاه الفرنسي هو السائد كما نجده في كتاب صفاء خلوصي عام 1957"دراسات في الأدب المقارن".

بداية من الستينيات بدأت تظهر هنا وهناك مجلات متخصصة في الأدب الأجنبي والمقارن، وظهر كتب منهجية فيه من انجاز: عبد المنعم خفاجي وحسن جاد طه ندا ومفيد الشوباشي، وبدأ هذا المجال يزدهر في دراساته

1- عباسة(محمد): المدرسة العربية في الأدب المقارن، ص14.
2- عباسة(محمد): المدرسة العربية في الأدب المقارن، ص15
3-حرود(شهيرة): محمد غنيمي هلال والمنهج المقارن، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن جامعة عنابة الجزائر، ص 38.
4- عباسة(محمد): المدرسة العربية في الأدب المقارن، ص16

العربية شيئا فشيئا فأغلب الجامعات أصبحت تدرسه، إلى أن جاءت مرحلة الثمانينيات، وعرف فيها الأدب المقارن العربي ازدهارا كبيرا، حيث ظهر جيل جديد من المقارنين العرب تشبعوا من منابعه، واستفادوا ممن سبقوهم، وتخصصوا فيه في بحوثهم، سلطوا جل اهتمامهم على الأدب العربي وعلاقاته التاريخية مع ما جاوره من آداب أوروبية أو إسلامية، ونشطت المجلات المتخصصة أهمها كانت دفاتر الأدب المقارن الجزائرية والآداب الأجنبية الدمشقية، تبنى أغلب المقارنين العرب التوجه الفرنسي التاريخي متخذين من الأدب العربي محورا في المقارنة ورافعين شعار اعادة الاعتبار للأدب العربي القديم والحديث.

أبرزهم كان: الطاهر أحمد مكي وداود سلوم ومناف منصور وعز الدين المناصرة وحسام الخطيب وبديع محمد جمعة وريمون طحان ومن الجزائر أبو العيد دودو وعبد المجيد حنون، ولخصر بن عبد الله وعبد الإله ميسوم وعبد القادر توزان وغيرهم.